غزوات المصطفى ﷺ

(٦)

غَزْوَةُ الأَحْزَابِ
« الخَنْدَقِ »

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

أُولئكَ الَّذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ

وَهَكَذا يا أَحِبَّتي الأَعِزَّاءَ فَقَدْ أَصْبَحَ اليهودُ في وَرْطَةٍ!

ذٰلِكَ لأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ تَمَّ إِجْلاءُ بَنِي النَّضِيرِ وَبَني قَيْنُقَاعَ عَنِ المَدِيْنَةِ المنوَّرَةِ ، خَافَ بَقِيَّةُ اليَهُودِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الدَّوْرُ ، فَتَشَاوَرُوا فيما بَيْنَهُمْ ، وَتَوَصَّلُوا إِلَىٰ هٰذا الحَلِّ : أَرْسَلُوا وَفْداً إِلىٰ قُرَيشٍ ، وَكانَ عَلَىٰ رَأْسِهِمْ (حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ) ، وَفِي مَكَّةَ اجْتَمَعُوا مَعَ صَنادِيدِ قُرَيْشٍ ، وَتَشَاوَرُوا فيما بينَهُم حَوْلَ كَيْفِيَّةِ القَضَاءِ عَلىٰ المُسْلِمينَ .

وَبَعْدَ التَّشَاوُرِ قَرَّرَ المُشْرِكُونَ وَاليَهُودُ وَبَعْضُ القَبَائِلِ العَرَبِيَّةِ مُبَاغَتَةَ المُسْلِمِينَ في المدينةِ المنوَّرَةِ .

فقامَ أَحَدُ كِبارِ قُرَيْشٍ وَوَجَّهَ سُؤالاً إِلَىٰ زُعَماءِ اليَهُودِ : أَنْتُمْ أَهْلُ كِتابٍ سَمَاوِيٍّ ، وَلَدَيْكُمْ عِلْمٌ أَكْثَرُ مِنَّا في هٰذِهِ الأُمُورِ ، فَهَلْ دِينُنَا ـ عبادَةُ الأَصْنامِ والأوثانِ ـ خيرٌ أَمْ دِينُ مُحَمّدٍ ؟!

فَقَالَ اليَهُودُ ـ كَذِباً وَزُوْراً ـ : بَلْ دِينُكُمْ خيرٌ مِنْ دِيْنِهِ ، وَأَنْتُم أَحَقُّ مِنْهُ!! فَأَنْزَل اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ قَوْلَهُ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥١ـ٥٢] .

وَهٰكَذَا بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا ، الْتَفَّ الأحْزَابُ حَوْلَ هَدَفٍ وَاحدٍ هُوَ الزَّحْفُ إلىٰ المدينةِ المنوَّرَةِ للقَضَاءِ عَلَىٰ المُسْلمينَ!!

وكانَ عددُهُم عَشْرَةَ آلافٍ ، مَعَهُمْ ثلاثُمِئَةِ فَرَسٍ ، و(١٥٠٠) بَعيرٍ ، وكان الَّذي يَتَزَعَّمُهُمْ هُوَ (أَبُو سُفْيانَ) ، فماذا يفعلُ المسلمونَ أَمَامَ ذٰلِكَ ؟!

* * *

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمّداً

وَلَمَّا وَصَلَ الخَبَرُ إِلَىٰ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم اسْتَشَارَ الصَّحَابَةَ ، ثُمَّ وَافَقَ عَلَىٰ رَأْيِ (سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَذٰلِكَ بِأَنْ يَحْفِرُوا خَنْدَقاً مِنَ الجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ للمدينةِ المنوَّرَةِ ، ذلكَ لأَنَّها الجِهَةُ الوَحِيدَةُ السَّهْلَةُ الَّتي يَسْتَطِيعُ العَدُوُّ أَنْ يَدْخُلَ مِنْها .

واسْتَنْفَرَ الصَّحَابَةُ الكِرَامُ ، وَتَعَاوَنُوا فِي حَفْرِ الخَنْدَقِ ، وَكَانَ فِي مُقَدِّمَتِهِم قَائِدُنَا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، حَيْثُ كانَ يَحْمِلُ التُّرابَ وَالأَحْجَارَ ، وَكانَ يُحَمِّسُ الصَّحَابَةَ قَائلاً :

« اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ

فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالمُهاجِرَةِ

وَكَانَ الصَّحَابَةُ الأَكارِمُ يُرَدِّدُونَ وَرَاءَهُ :

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمدا

عَلَىٰ الجِهادِ مَا بَقِيْنا أَبَدا

يَرْوِي البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَائِلاً : لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ ، وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، رَأَيْتُهُ يَحْمِلُ مِنْ تُرَابِ الخَنْدَقِ ، حَتَّىٰ وَارَىٰ عَنْهُ التُّرابُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ وَكَانَ كثيرَ الشَّعرِ ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِماتِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي اللهُ عنهُ وَهُو يَنْقُلُ التُّرابَ :

اللَّهم لَوْلا أَنْتَ ما اهْتَدَيْنا

وَلا تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنا

فَـــأَنْـــزِلَـــنْ سَكِينَـــةً عَلَيْنـــا

وَثَبِّـــتِ الأَقْـــدَامَ إِنْ لاَقَيْنـــا

إِنَّ الأُلَـــىٰ قَـــدْ بَغَـــوا عَلَيْنـــا

وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَـــــةً أَبَيْنـــا

* * *

لَقَدْ رَأَوْا شَيْئاً عَجَباً!!

وَاسْتَطَاعَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَحْشُدَ مِنَ المُسْلِمينَ قَرابَةَ ثَلاثَةِ آلافٍ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَمَرْكَزُوا دَاخِلَ الخَنْدَقِ .

وَلَمَّا وَصَلَتِ الأَحْزَابُ إِلىٰ المَدِينَةِ المنوَّرَةِ ، رَأَوْا شَيْئاً عَجَباً ، لَقَدْ رَأَوْا خَنْدَقاً حَوْلَ المَدِينَةِ ، وَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا ذٰلِكَ أَثْنَاءَ مَعَارِكِهِمْ أَبَداً! فماذَا يَفْعَلونَ ؟

لَقَدْ نَصَبُوا خِيَامَهُمْ بالقُرْبِ مِنَ الخَنْدَقِ ، وَرَاحَ الفُرْسَانُ وَالأَبْطَالُ يُفَتِّشُونَ عَنْ نُقْطَةِ ضَعْفٍ لِيَنْفُذُوا مِنْ خِلالِهَا ، فَلَمْ يَجِدُوا .

وبَقيتِ الحالةُ بينَ تَرَامٍ بالنِّبَالِ ، وَبَيْنَ مُنَاوَشَاتٍ طَفِيفَةٍ ، لكنَّ المُشْكِلَة الرَّئيسيَّةَ هِيَ أَنَّ الجَوَّ كانَ بَارِداً جِدَّاً .

وَذاتَ لَيْلَةٍ خَرَجَ (حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ) إلىٰ (كَعْبِ بْنِ أسَدٍ القُرَظِيِّ) ، فَرَاح يُحَرِّضُهُ عَلَىٰ تَمْزيقِ العَهْدِ الَّذي أَبْرَمَهُ مَعَ المُسْلِمينَ ، وَلَمَّا وَصَلَ الخَبَرُ إِلَىٰ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « أَبْشِرُوا بِفَتْحِ اللهِ وَنَصْرِهِ » .

* * *

إِلَىٰ مَتَىٰ هٰذَا البَلاءُ ؟!

وَهَكَذَا بدأتِ المَسْأَلةُ بالتَّأَزُّمِ ، فالمُشْرِكونَ خَارِجَ الخَنْدَقِ ، وَاليَهودُ غَدَرُوا في الدَّاخِلِ ، والطَّعامُ بدأَ بالنَّفَادِ ، لٰكنْ مَعَ ذلكَ كانَ الحبيبُ مُحمَّدٌ يبشِّرُهُمْ بالنَّصْرِ وَالفَتْحِ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيَفْرُجَنَّ عَنْكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنَ الشِّدَّةِ ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالبَيْتِ العَتيقِ آمِناً ، وَأَنْ يَدْفَعَ اللهُ عزَّوجلَّ إليَّ مفاتيحَ الكَعْبَةِ ، وَلَيَهْلِكَنَّ كِسْرىٰ وَقَيْصَر ، ولَتُنْفَقَنَّ كنوزُهُما في سبيلِ اللهِ عزَّوجلَّ » .

وَزادَ الطِّينَ بِلَّةً تَخَاذُلُ المنافقينَ : حيثُ

بَدَؤُوا يَتَسَلَّلُون مِنْ بَيْنِ صفوفِ المُسْلمينَ ، وَيَرْجِعُونَ إلىٰ بُيُوتِهِمْ ، تَحْتَ حُجَجٍ ما أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطانٍ ، فَماذَا يَتَحَمَّلُ المُسْلمونَ مِنْ أنواعِ البَلاءِ ؟ أَيُواجِهُونَ المُشْرِكينَ ؟ أَمْ يُقَاتِلُونَ اليَهُودَ ؟ أَمْ يفَاوِضُونَ المُنافقينَ ؟!

وقَدْ صَوَّرَ القرآنُ الكريمُ حالةَ المؤمنينَ تَصْويراً دَقيقاً ، قالَ تَعَالَىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب : ٩-١٢] .

« اللَّهمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ »

وَدَامَ الحِصَارُ زُهَاءَ شَهْرٍ كامِلٍ ، وَبَدَأَ التَّمَلْمُلُ في صفوفِ الأَحْزَابِ ، بَيْنَما الرَّسُولُ صلوات اللهِ عَلَيْهِ يُؤَكِّدُ علىٰ الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ ، وَيُلِحُّ بالدُّعَاءِ :

« اللَّهمَّ مُنزلَ الكتابِ ، سَرِيعَ الحِسَابِ ، هَازِمَ الأَحْزَابِ ، اللَّهمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ » .

وَدَبَّ الرُّعْبُ في قلوبِ الأعْداءِ ، فَاخْتَلَفَ المُشْرِكونَ مَعَ اليَهُودِ ، وَمَعَ المنافقينَ ، وَجَاءَ المددُ الإلٰهيُّ ، حيثُ أُرْسِلَ عَلَىٰ المُشْرِكينَ رِيحٌ بارِدَةٌ ، مَعَ ظلامٍ دامِسٍ ، حتَّىٰ لَمْ يَعُودُوا يَسْتَطيعونَ إشْعالَ نَارٍ ، وَلاَ طَبْخِ طَعَامٍ... ،

وهُدِّمَتِ الخيامُ ، وقُطِّعَتِ الأَوْتَادُ .

فَوَقَفَ (أبو سفيانَ) يقولُ : يا مَعْشَرَ قريشٍ! إِنَّكُمْ واللهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ ، لَقَدْ هَلَكَ الكراعُ وَالخُفُّ[1] ، وَأَخْلَفَتْنَا قُرَيْظَةُ ، وَلَقِيْنَا مِنْ شِدَّةِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ ، فارْتَحِلوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ!!

وَبِذلكَ انْتَصَرَ المُسْلِمونَ دُونَ قِتَالٍ ، وَانْهَزَمَتِ الأَحْزَابُ شَرَّ هزيمةٍ ، وَقَدْ سَجَّل البيانُ الإلٰهيُّ ذلك الحَدَثَ ، قال تعالىٰ :

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

---

(١) الكراعُ : الخيلُ ، والخفُّ : الإبلُ .

لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ [الأحزاب : ٢٢-٢٥] .

والحمدُ لله ربِّ العالمينَ

* * *